المصطلح البلاغي في دور النشأة والتطور حتى نهاية القرن الثالث الهجري

أ.عبد الجليل مصطفاوي
قسم اللغة العربية
كلية الآداب
والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية .
جامعة أبي بكر بلقايد -تلمسان-

الملخص

الدراسة محاولة لرَصْدِ مراحل نشأة المصطلح البلاغي وتطوّره في مباحث علمائنا الأجلاء ، وهي تقتصر على الأصمعي ، وأبي عبيدة ،والجاحظ ، والمبرد وعبد الله بن المعتز . وتكتفي بعرض بعض النماذج لهذا المصطلح

إنّ الحديث عن المصطلح البلاغي في دور نشأته وتطوّره يتطلب من الجهود أوفرها ، ومن التأني والتؤدة منتهاهما ؛ ذلك أن مجالا ت البلاغة لم تكن قد تحددت معالمها بعد ؛ لارتباطها في أدوارها الأولى بالنقد الأدبي ، وفنون القول ، والدراسات اللغوية عمومًا [1] .

فقد ظلت البلاغة ، والفصاحة والبيان ، والخطابة ، والبديع مسمّيات متقاربة الدلالة في كتب التراثيين [2] . ولم يتحدد مفهوم البلاغة إلا في العصور اللاحقة بدءًا من قدامة بن جعفر (-337هـ) الذي وضع لها تعريفا جامعًا شاملا [3] ، وصولا إلى السكاكي (-626هـ) في مؤلفه " **مفتاح العلوم** " إذ حدد فيه أقسام البلاغة الثلاثة المعروفة ، بعد أن ظلت متداخلة طوال قرون عديدة ، ووضع لها الأبواب ، ورتبها وحدّ ألوانها [4].

يضاف إلى ذلك أنّ تتبع هذا المصطلح يفرض على الباحث الاتصال بمعظم كتب التراث العربي ، لأن كثيرا من الطوائف والفرق كان لها إسهام في رفد البلاغة ودعم أصولها من فقهاء ، وشعراء ، ومفسرين ، ولغويين ، ورواة ، وكتّاب ، ونقاد، وفرق فلسفية كلامية ، فضلا عن مجالس الخلفاء والأمراء ، والنساء ، وما كان يدور فيها من حديث عن الأدب والنقد ، وكلّ ما له علاقة بالبيان [5] .

كل أولئك يفرض على الباحث العودة إلى كلّ هذا الزخم المعرفي الهائل ، مع ما يتطلبه ذلك من مثابرة وصبر وتأمل . وقد رأيت في هذه الأوراق أن أدرس المصطلح عند بعض العلماء الذين كانت بصماتهم واضحة في حقل البلاغة العربية . وأشير هنا إلى أنني سأكتفي بعرض نماذج لهذا المصطلح في أدوار نشأته وتطوره .

1_المصطلح قبل الجاحظ :

يعد الأصمعي (-216هـ) من أوائل من اهتموا بالشعر وروايته ، وجمعه ، وقد مكّنه ذلك من الوقوف على محاسنه ومساوئه ، ومن ثم التمييز بين جيده ورديئه ، والبحث في أسرار ذلك .فكثيرًا ما كان يقف أمام النص الشعري ناقدًا ، ومحللاً ، فنتج عن ذلك بعض الملاحظات التي لها علاقة بالبلاغة [6]

فقد روى عنه الجاحظ أنه تنبّه إلى أنّ من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر " وإن كانت مجموعة في بيت شعر، لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبرُ " [7].

وما يشير إليه الأصمعي ههنا يتلقفه البلاغيون بعده ليجعلوا منه ركنا مهما من أركان البلاغة ، وهو مصطلح **الفصاحة**[8].

وورد عنده ذكر مصطلح **البديع** في معرض موازنة بين بشار بن برد ، ومروان بن أبي حفصة ؛ إذ قال عن بشار:"...وبشار قد سلك طريقا لم يسلك ، وأحسن فيه ، وتفرّد به . وهو أكثر تصرفا وفنون شعر ، وأغزر وأوسع **بديعاً** ..." [9]. وقد تردد هذا المصطلح بعد الأصمعي ، وألف عبد الله بن المعتز كتابا بهذا العنوان .

ويرد مصطلح **المطابقة** أيضا عند الأصمعي . فقد ذكر ابن رشيق أنه ذكر المصطلح فقال إنّ أصل المطابقة وضع الرّجل في موضع اليد في مشي ذوات الأربع ، ومثّل له بقول زهير:

ليثٌ بعثّر يصطادُ الرجال إذا ما الليث كذب عن أقرانه صدَقا [10]

ويذكر أبو هلال العسكري في أثناء حديثه عن المجانسة اللفظية أنّ الأصمعي ألف في هذا الباب كتاب الأجناس [11].

ويقابلنا بعد ذلك من اللغويين **أبو عبيدة معمر بن المثنى** (-209هـ)بكتابه "**مجاز القرآن**" الذي يعود سبب تـــأليفه إلى مسألة تتصل **بالتشبيه** ، كما يروي ياقوت الحموي [12].

ولفظة **المجاز** في عنوان الكتاب لا تعني المجاز المقابل للحقيقة في اصطلاح علم البلاغة ، ولكنها تعني التأويل والتفسير ، وإن كان قد عرض لمفهوم المجاز البلاغي في متن الكتاب [13].

وقد ذكر فحوى ما عُرف فيما بعد **بالالتفات** في قوله تعالى :﴿ حتّى إذا كنتم في الفُلكِ وجَرَيْنَ بهم﴾

وورد في كتابه أيضا إشارات كثيرة إلى بعض فنون البلاغة نحو **الإطناب ، والإجمال ، والتقديم والتأخير ، والكناية ، والاستعارة...**

2_المصطلح عند الجاحظ :

حينما يذكر الجاحظ تعود إلى الذاكرة قصة وفاة هذا الرجل الذي أحبّ الكتاب ، وأفنى عمره في الحصول عليه ، وسعى دومًا إلى الإفادة منه ؛ مما مكّنه من التـــأليف في مختلف الفنون والعلوم . وما يهمّنا من كتبه ومؤلفاته كتاباه " **البيان والتبيين** " و" **الحيوان** " ؛ إذ فيهما تظهر جهوده في البلاغة العربية .

وآراء الجاحظ (-255هـ) في البلاغة مبثوثة وموزعة في تضاعيف مباحثه الكثيرة ، ولا يمكن الوصول إليها إلا بالتأمل ، وطول التصفح والقراءة كما يذكر الدكتور مازن المبارك [14] . وهو الأمر الذي لمسناه في أثناء اتصالنا بكتب الجاحظ .

والواقع أن الجاحظ قد وضع الخطوط الهامة لمسار البلاغة العربيّة ، وأشار إلى كثير من مباحثها ، وقضاياها التي أفاد منها البلاغيون ، والنقاد بعده . وسأكتفي ههنا بذكر بعض المصطلحات الواردة في كتابيه المذكورين .

إنّ ما أشار إليه الأصمعي آنفا من تنافر الحروف دفع بالجاحظ إلى البحث في الأسباب المخلّة بتوفّر الفصاحة في الكلمة والكلام ؛ فذكر عيوب اللسان من تمتمة ، وفأفأة ، ولجلجة ، ولثغة ، ولكنة ، وحُبْسة [15].

ومن القضايا الهامة التي أشار إليها الجاحظ **مطابقة الكلام لمقتضى الحال** ، والتي أصبحت فيما بعد أصلا من أصول البلاغة . والحق أنّ الكتّاب هم أول من أشار إليها ، وبخاصة عبد الله بن المقفع ، غير أنّ الجاحظ توسّع في ذلك وألّح عليه ، يقول: " ولكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء . فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال ."[16] .

وحديث الجاحظ أيضا عن **اللفظ** و **المعنى** معروف ؛ فقد توقف مطولا مع هذه القضية شارحًا ومحللا . وما يسجّل له هنا تفطنه إلى حقيقة هامة جدا وهي أن لكلّ شاعر أو أديب معجمه اللغوي الذي يستعين به في كلامه . يقول : " ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم ، وكذلك كل بليغ في الأرض وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر في الأرض وصاحب كلام موزون . فلابد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظا بأعيانها ليديرها في كلامه ، وإن كان واسع العلم غزير المعاني ، كثير اللفظ ." [17].

ولعلّ الجاحظ هو أول من ذكر مصطلح **النّظم** ، وألف في ذلك كتابا أسماه :"**نظم القرآن**" ، ذكره الزمخشري في مقدمة الكشاف . والكتاب محاولة للوقوف على سرّ إعجاز القرآن الكريم [18].

وحديث الجاحظ عن **البيان** وما يتعلق به مشهور معروف ، فهو يعرّفه ويحدّد أركانه ، ويخصّص له فصلا طويلا في البيان والتبيين . وكذلك البلاغة [19].

وتحدّث عن **التشبيه** ، فذكر تشبيهات العرب ، وأنواعها مركزا على المشبه به ، وكذا أداة التشبيه نحو الكاف ، وكأنّ ،ومثّل .وأشار إلى أنّ وجه الشبه ينبغي أن يكون قويا في المشبه به ، وذكر استحسان البلغاء لتشبيه شيئين مختلفين في حالتين مختلفتين في بيت،وهو قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العنّاب والحشف البالي[20]

والحقيقة والمجازعند الجاحظ واردان بمفهومهما المعروف عند المتأخرين .يقول:"وإذا قالوا أكله الأسد فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف،وإذا قالوا أكله الأسْوَدُ فإنما يعنون النهش و اللدغ والعض فقط .وقد قال الله عز وجلّ : ﴿ أيحبُّ أحدُكم أن يأكل لحم أخيه ميتا ﴾ وكذلك قول دهمان النهري :

سألتني عن أناس أكَلُوا شرب الدّهرُ عليهم وأكل

فهذا كله مختلف ، وهو كله مجاز " [21] .

وتحدّث عن **الاستعارة والكناية** ، **والسجع** ، **وأسلوب الحكيم** الذي سمّاه : اللغز في الجواب ، **والاقتباس والاحتراس** ، **والمزدوج** ، **والسرقات الشعرية** ، وإن كانت ألصق بالنقد الأدبي ...وغير ذلك .

3-المصطلح عند المبرد:

لعل أول ما يسجّل للمبرد أبي العباس بن يزيد (-285هـ) هو أنّه فتح باب التخصص في الدرس البلاغي إذ أنّه أول من خصّص بابًا **للتشبيه** ذكر فيه جيده ورديئه ، ومحاسنه ومساوئه ، وعيوبه، وأنواعه ، وذلك في فصل طويل في كتابه : " **الكامل في اللغة والأدب** " .يقول : " وهذا باب طريف نصل به الباب الجامع الذي ذكرناه ، وهو بعض ما مرّ للعرب من التشبيه المصيب والمحدثين بعده " [22] .

وذكر نوعاً من التشبيه عرف فيما بعد ،عند ابن جني وعبد القاهرالجرجاني **بالمقلوب** ، ومثّل له بقول ذي الرّمة :

ورملٍ كأوراك العذارَى قطعته إذا ألْبَسَتْهُ المُظْلِمَاتُ الحنَادِسُ

وذكر بيت امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدى وكرها العنَّاب والحشف البالي

وقال عنه : " فأحسن ذلك ما جاء من تشبيه شيء في حالتين مختلفتين " [23] .

وتحدّث عن **التعقيد اللفظي** ، فقال :" ومن أقبح الضرورة ، وأهجن الألفاظ وأبعد المعاني قوله :

وما مثله في الناس إلاّ مُمَلكاً أبُو أمّه حيٌّ أبوه يقاربه [24]

وتحدث عن **السرقات الشعرية ، والتقديم والتأخير والكناية ، والاستعارة وأضرب الخبر ، والمجاز**، وغير ذلك .

4_ المصطلح عند عبد الله بن المعتز :

يعد عبد الله بن المعتز (-296هـ) رجلا مهمًّا في الدرس البلاغي ، ولايمكن لأي باحث تجاوزه أو تجاهل جهده الكبير في هذا المجال ؛ ذلك أنّه ، فيما نظن ، أول من كرّس فكرة التخصص في الدرس البلاغي . فألف كتابه " **البديع** " وتحدّث فيه عن البلاغة وأبوابها ، بخلاف ما كان يفعله غيره كالجاحظ ، والمبرد ، وأبي عبيدة الذين كان حديثهم يرد عن البلاغة في معرض ما يقع لهم من آيات وأحاديث ، وأشعار ، وأقوال.

يشتمل كتاب البديع ، الذي تقدّم خطوات بالمصطلح البلاغي على خمسة أبواب أساسية ، تحدّث فيها عبد الله بن المعتز عن أصول البديع الكبرى ، كما يراها هو ، وهي : **الاستعارة ،والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدّمها ، والمذهب الكلامي .**

وأضاف إليها ثلاثة عشر فنًّا قال إنّها من محاسن الكلام هي : **الالتفات ، واعتراض كلام في كلام ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأكيد المدح بما يشبه الذّم ، وتجاهل العارف ، وهزل يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه في القوافي ، وحسن الابتداءات** [25] .

وخلاصة القول إنّ هذه المباحث كانت اللبنات الأولى في صرح البلاغة العربية . وقد أفاد المتأخرون كثيرا من هذه الجهود في مباحثهم ،ومؤلفاتهم وأضافوا إليها ما زادها غناء وثراء.

الهوامش:

(1) ينظر المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز،د.أحمد جمال العمري ص 79- مكتبة الخانجي-القاهرة .
(2) المرجع نفسه ص81.
(3) ينظر في تاريخ البلاغة العربية د.عبد العزيز عتيق ص 147- دار النهضة العربية – بيروت.
(4) مقدمة ابن خلدون ص458-دار العودة-بيروت.
(5) ينظر في تاريخ البلاغة العربية ص15.
(6) ينظر المرجع نفسه ص35.
(7) البيان والتبيين ج1 ص65.تحقيق عبد السلام هارون ،دار الجيل-بيروت
(8) ينظر الإيضاح للقزويني ص5 وما بعدها ،دار الكتب العلمية -بيروت
(9) العمدة لابن رشيق ج2ص65 تحقيق محمد محي الدين.
(10) ينظر المصدر نفسه ج2 ص6
(11)ينظر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص321.مطبعة الحلبي.
(12)ينظر معجم الأدباء 19 :157 دار المأمون بالقاهرة .
(13)ينظر في تاريخ البلاغة العربية ص37 والمباحث البلاغية ص43 .
(14)ينظر الموجز في تاريخ البلاغة العربية د.مازن المبارك ص54 .
(15)ينظر البيان والتبيين ج1ص34 .
(16)الحيوان للجاحظ ج3ص39 تحقيق عبدالسلام هارون .مصر القاهرة .
(17)البيان والتبيين ج1ص129 .
(18)ينظر الحيوان ج3 ص9.
(19)ينظر البيان والتبيين ج1ص75و88.
(20)ينظر الحيوان ج3ص 53 .
(21) الحيوان ج5ص 27-28.
(22) الكامل في اللغة والأدب للمبرد ج2ص 40 ، مؤسسة المعارف -بيروت.
(23) المصدر نفسه ج2ص 40.
(24) المصدر نفسه ج1ص 18.
(25) ينظر البديع لعبد الله بن المعتز ص 6 وما بعدها .